الفصل الثاني
التصورات الجاهلية عن أسباب التخلف وعوامل التقدم

السؤال الذي نطرحه هنا: لماذا نبحث التصورات الجاهلية عن أسباب التخلف والنهضة في العالم الإسلامي؟ وهل هي من الأهمية حتى تدرس وتناقش أفكارها؟

أما التصورات الجاهلية فهي كل تصور يرفض أن يفسر ويحلل مشكلات المسلمين الكبرى من تخلف علمي وهزائم عسكرية ونفسية وتفكك سياسي وتراجع اقتصادي وتخلف اجتماعيي على ضوء كتاب الله الكريم والسنة الشريفة. إنه كل تصور يرجع ضياع المسلمين وذهاب هيبتهم وقوتهم إلى عوامل مادية ليس لله سبحانه وتعالي هيمنة عليها أو تدبير أو تصريف لها. والتصور الجاهلي هو كل تصور يرفض أن يحكّم كتاب الله وأقوال رسوله (عليه الصلاة والسلام) وأن يستخرج الحلول منهما لأزمات العالم الإسلامي.

ويستلزم من ذلك أن التصور الجاهلي يحصر أسباب وعوامل التقدم في أمور مادية بحتة، كالتكنولوجيا مثلا، أو في الاستفادة من التجارب البشرية في الحكم والسياسة التي طوّرها الإنسان الجاهلي عبر تاريخه الطويل. وتقدم دعوات المثقفين الجاهليين في العالم الإسلامي لتطبيق النظام الديموقراطي (على أنه أرقى وأنفع للأمة من دين الله سبحانه وتعالى) على أنه الوسيلة التي سترقى بالأمة وتمنع عنها جوّر الحكام والمستبدين مثالاً على ذلك.

ويترتب على هذه التصورات الجاهلية التي يراد لها أن تنتشر بين عامة المسلمين وخاصتهم وأنْ يؤمن بها وتتخذ قواعد تقام وتُطور عليها سياسات اقتصادية و اجتماعية وتعليمية، أن يصبح دين الله بعيد كل البعد عن أن يكون له الدور الرئيس والأثر الفاعل والواضح في واقع الأمة وفي تخليصها من أزماتها وبلائها.

ومناقشة التصورات الجاهلية وبيان زيفها وهوان دعواها و خبث مقاصدها وسوء وسائلها من الأمور المهمة ونحن نعرض لقضية كبرى كأسباب التخلف والنهضة في العالم الإسلامي وأهميتها تكمن في تعرية هذا الفكر الجاهلي (الذي ظل يغذي الأنظمة الجاهلية الحاكمة

في العالم الإسلامي بالأفكار المضللة التي زادت في بؤس الأمة و عمّقت من أوضاع تخلفها) وتبصير المسلمين وصرفهم عن أن يقعوا أسرى لهذا الفكر الذي يُجمّلونه فيسمونه تارة بالتحرري وتارة بالمستنير وتارة بالتقدمي ليُلبسوا على أفكار المسلمين وتصوراتهم.

وما نفعله ليس بالشيء الجديد فلقد أنكر الله سبحانه على مشركي العرب اتخاذهم الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع. ولم يقل لهم سبحانه وتعالى اتركوا عبادة الأصنام ولكن بين لهم أيضا ضعفها وعجزها وانعدام حيلتها وأنها لا تملك أي شيء . فيقول سبحانه وتعالى ربي ورب كل شيء:

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون.) (الأعراف: 194، 195)

يقول الإمام القرطبي[1] أن الغرض من هذه الآية بيان جهلهم (أي المشركين) لأن المعبود يتصف بالجوارح. فكيف يبين لله سبحانه وتعالى جهل المشركين و"سفه عقولهم" كما ذكر القرطبي إلا من خلال تبيان واقع الآلهة التي يعبدونها.

وعلى هذا المنوال نسير ولا نكتفي فقط بتحذير الناس من الفكر العلماني وشروره ولكن بمناقشته وأنه لا يصمد أمام الفحص العلمي الدقيق حتى يظهر عجزه وخواء مضمونه.

ثم هدف سام نسعى إليه وهو الانتصار لدين الله سبحانه وتعالى بعرض واقعنا المرير الذي نعيش فيه على ضوء الكتاب الكريم والسنة الشريفة وإننا واجدون انه ما من أزمة أو بلاء حاق بالأمة إلا نتيجة الابتعاد عن أوامر الله وأنه ما من خير أصاب الأمة إلا لتمسكها بأوامر الله سبحانه وتعالى.

وهناك أمر مهم ينبغي تجليته حتى يزداد فهم التصورات الجاهلية. إن المفكرين الجاهليين يعتمدون اعتماد كليا في بناء تصوراتهم الجاهلية عن التخلف والنهضة في العالم الإسلامي على الفكر الغربي اللاديني. فهم ينظرون إلى مشكلاتنا ووسائل حلها بمنظور لم ينبع من واقع الأمة ولا تاريخها ولا مبادئها ولا قيمها. إن هؤلاء الجاهليين قد درسوا تاريخ أوروبا الحديث وتجربتها في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي والأسباب الفكرية والثقافية التي هيأت لهذا التقدم ودفعته إلى النجاح. ولقد كان تخلص أوروبا من هيمنة الكنيسة وبطشها أقوى الأسباب وأنجعها في تقدمها الحضاري.

والمفكرون الجاهليون في العالم الإسلامي يريدون أن يستنسخوا تجربة أوروبا مع النصرانية المحرّفة. إنهم يريدون أن يستبعدوا الإسلام

---

[1] الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القران، ج 7

من معركة النهضة ظنا منهم أن ذلك أول قواعد الانطلاقة السليمة لنهضة تعليمية واقتصادية واجتماعية يستطيع العالم الإسلامي من خلالها منافسة الحضارات الأخرى.
هذا هوا المفتاح الذي يمكننا من فهم الفكر الجاهلي العربي. إن المفكرين العرب وإن ادعوا أنهم يريدون استقلال الأمة اقتصاديا وسياسياً من خلال بناء فكر "مستنير" و رؤية " عقلانية" تستفيد منه الطبقة السياسية الحاكمة في العالم الإسلامي ويستفيد منه عموم الأمة إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك ولن يستطيعوا ذلك أبدا.
لأن المفكرين الجاهليين في مجتمعاتنا مُستعمرين روحيا كما أسماهم الشهيد سيد قطب[2] رحمه الله. ولا يستطيع أن يحقق الاستقلال للأمة ويدفعها للنهوض وهو لم يستقل من داخله ولم يتخلص من هيمنة الضالين على روحه وتفكيره.
سنناقش رؤية التخلف والنهضة لثلاثة من المفكرين الجاهليين العرب د. محمد جابر الأنصاري و د. محمد عابد الجابري و د. برهان غليون.
رؤية محمد جابر الأنصاري لأسباب التخلف في العالم الإسلامي:
محمد جابر الأنصاري مفكر قومي استطاع أن يفرض نفسه في الساحة الثقافية العربية وأن يطور أفكاره ورؤيته- من خلال قراءة تجارب الأمم الوثنية والكافرة في النهضة السياسية والاقتصادية- عن أسباب وعوامل الأزمات في العالم الإسلامي ولذا تطبع الرؤية المادية أفكاره وتعزز تحليلاته. ولأنه مفكر خليجي، كان للإسلام ولا يزال دور في واقع مجتمعات الخليج، ولأنه يدرك ما للإسلام من مكانة في شعوب هذه المجتمعات فإنه لا يجهر علانية بعدائه للإسلام ولكنه يستبعده تماما من التحليل السياسي والاجتماعي الذي يقدمه عن أزمة العالم العربي الإسلامي.
ومن ثم يوهم القارئ الذي لا يفطن لمغزى أفكاره و أطروحاته التي نثرها في أكثر من كتاب، أن شعوب العالم العربي لا تحتاج إلى الإسلام لتنهض من كبوتها وأزمتها وأن تعود إلى خالقها لتعبده دون أن تشرك به شيئا. كلا، إنه يريد أن يصل بالقارئ المسلم إلى استنتاج حقيقة واحدة:
أن رقينا في العصر الراهن لن يكون بالإسلام لأن تخلفنا لا يمكن تفسيره من خلال الإسلام.
إذا، من وجهة نظر محمد الأنصاري، ما العوامل التي أسهمت في تشكيل واقع التخلف في العالم العربي؟ الجغرافيا، من وجهة نظره أهم الأسباب في فهم واقعنا المعاصر. يقول الأنصاري:

---

[2] انظر مقاله الرائع : عدونا الأول: الرجل الأبيض. في أيها العرب استيقظوا و احذروا ، دار الإسراء للنشر والتوزيع، عمّان، 1990

(لا يمكن فهم وتفسير خصوصية التكوين المجتمعي-السياسي للعـرب دون الرجوع إلى طبيعة العامل الجغرافي الحاسم الذي كـانت لتـأثيره الأولوية في صياغة المعطيات الأساسية للمشهد الحضـاري العـام فـي المنطقة العربية: اجتماعيا وسياسيا، اقتصاديا وثقافيا)[3]
هذا هو الملمح الأول لتفكيره. ثم يزيده تفصيلا فيقول:
(وسيكون النظـر فـي أولويـة التحـدي الجغرافـي ومعوقـاته) مـدخلنا لذلك. حيث سنرى كيف أدت سيادة الطبيعة الصـحراوية الجافـة علـى المنطقـة إلـى انقطـاعين زمـاني ومكـاني فـي اسـتمرارية الحضـارة ومؤسساتها الأساسية: الدولة فمن خلال موجات التصحر اختفت مدن وحضارات بأكملها لتعود المنطقة في مسـيرتها التحضـرية إلـى نقطـة البداية. وذلك ما خلق قطيعة حضارية في الزمـان بيـن عصـر حضـاري وأخر من عصور التاريخ العربي.
أما القطيعة المكانية فتمثلت في ظاهرة التباعد الصحراوي بين مراكز التحضر العربي بحيث بقيت هذه المراكـز جـزرا متباعـدة غيـر متصـلة بشكل عضوي وذلك ما أدى إلى إضـعاف التواصـل العضـوي الحضـري في نسيج المجتمع العربي الذي ظل مجزء على صعيد القاعدة المادية الأرضية إلى يومنا هذا. وكان لهذا الواقع أثره الخطير ليـس فقـط فـي عرقلة حركة التوحيد السياسي بين العرب في العصـر الحـديث، وإنمـا في تجريد الدولـة العربيـة الإسـلامية التاريخيـة مـن قاعـدتها الأرضـية الحضرية العضوية المتواصلة مما أدى إلى بذر بذور التجزئـة التاريخيـة أصـلا، بمـا أدت إليـه- ليـس فقـط مـن صـراع سياسـي بيـن الكيانـات المتعـددة- وإنمـا مـن تـوتر وتجـاذب بيـن ولاء العـرب الفـرد العربـي المسلم لوحدة حضارته وثقافته مقابل تعددية الكيانات السياسية التي كـانت تتجـاذبه-ومـا تـزال- فـي تعـارض مـع تلـك الوحـدة الانتمائيـة الشاملة)[4]
ويصـف أثـر الصـحراء علـى الواقـع السياسـي العربـي قـديما وحـديثا فيقول:
(وهذا التباعد أو الخلاء الصحراوي بين مراكـز التحضـر العربـي يمثـل أهم الأسباب الجغرافية- التاريخية المزمنة لعدم تكتمل مجتمع عربـي بنسيج حضري عمراني عضوي متوحـد يتقبـل الوحـدة السياسـية، فـي الماضي، كما في الحاضر، وهـو فـي تقـديرنا العامـل الموضـوعي لمـا تتصف به الحياة العربية-قديما وحديثا – مـن تجزئـة ونزاعـات إقليميـة تجذرت بين المناطق الحضرية المتباعدة فيما بينها، والتي حال الفـراغ الصحراوي دون تلاقيهـا وتفاعلهـا الحميـم المـؤدي إلـى قيـام الوحـدة

---

[3] محمد جابر الأنصاري، التأزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام: مكونات الحالة المزمنة، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1995، ص 49.
[4] مرجع سابق، ص 53

المجتمعية، وبالتالي، الوحدة السياسية، حيث لا وحدة للسياسة دون وحدة المجتمع)[5]
ثم يؤيد أفكاره الجاهلية بأمثلة من الواقع الجغرافي وتأثيره على الجانب السياسي لأعتى الدول الوثنية كرها وعداء للإسلام والمسلمين: الصين والهند فيقول:
(فقبل أن تتوحد الكتلة الصينية أو الهندية سياسيا- على سبيل المثال- كان كل من الجسم المجتمعي-الحضاري للصين أو الهند يتوحد في كتلة متلاصقة من الأرض المأهولة والمعمورة والمروية بأمطار أسيا الموسمية عبر شبكة الأنهار والأراضي الزراعية المتلاصقة أو المتواصلة بالقنوات والترع والطرق البرية الممهدة المأمونه، الأمر الذي خلق القاعدة المجتمعية الموحدة والمستقرة التي وفرت بالتالي أرضية التوحيد السياسي واستمراره لكل من الصين والهند على ضخامة كثافتهما السكانية و تعدادياتها الإقليمية والاثنية والدينية)[6]
ويمكن أن نلاحظ من أفكار الأنصاري الجوانب التالية:

- أننا لا نجد للإسلام أي أثر في تقديره لحالة التفكك السياسي التي يعيش فيها المسلمون في العالم العربي والتي عانى بسببها (أي حالة التفكك السياسي) العالم الإسلامي و لا يزال يعانى من ذلك.
- اختزال حالة التأزم والتفكك إلى عوامل طبيعية تتمثل في العامل الجغرافي وتحديدا العامل الصحراوي.
- الإعراض عن قصد عن التاريخ الإسلامي ودور الإسلام في توحيد الأمة متغلبا بعون الله ، على كافة العقبات الأرضية والمادية التي كانت تواجهه في تلك الفترة من التاريخ.
- وإذ يفعل د. الأنصاري ويطور هذا المنهج اللاديني في التحليل، فإنه ينظر إلى واقع أمم أخرى في الأرض ليس لها مع الإسلام وأهله أي صلة ثم يقيس واقع المسلمين على التجارب الأخرى وبالذات الصين والهند والعوامل التي ساعدت على الوحدة السياسية لكل من هاتين الأمتين. وهنا نطرح سؤالا بناء على التصور الذي يقدمه الأنصاري:

هل تعمير الصحراء عن طريق الإصلاح الزراعي أو التوسع الحضري كما ينادي بذلك الأنصاري والقضاء على الفراغات الصحراوية التي أدت إلى القطيعة المكانية والزمانية ستفضي إلى تقارب المجتمعات العربية وستؤدي إلى قيام وحدة سياسية؟
لنفترض عقلا أن ذلك قد وقع وأن التوسع الحضري قد قلص المساحة الصحراوية وقرب المجتمعات العربية إلى بعضها فهل يمكن أن يؤدي ذلك إلى:

---

[5] مرجع سابق، ص 59
[6] مرجع سابق، ص 59

- القضاء على ظلم الدولة في العالم الإسلامي للشعوب الإسلامية الذي أرهق قواها وشتت طاقاتها النفسية ودمر تآلفها الاجتماعي؟
- تقليص التنافر بين الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي والتي فرقت وعمقت الأحقاد بينها، الأيديولوجيات العلمانية الكافرة التي يتبناها كل نظام؟ فعلى سبيل المثال كيف يمكن أن تزال الأحقاد المتبادلة بين النظام البعثي الأسبق في العراق والنظام البعثي في سوريا، أو كيف يمكن أن تزال الكراهية بين النظامين الأردني والسوري أو تلك التي بين المغرب والجزائر أو بين السودان ومصر؟
- وسؤال أخير: هل يمكن أن يؤدي تعمير الصحراء وزيادة الرقعة الحضرية بحيث تؤدي إلى تقريب المجتمعات العربية إلى بعضها، أقول، هل يمكن أن يؤدي ذلك إلى أن تنتفض الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي على علاقتها بالغرب (الصليبي والملحد) والتي أسهمت تلك العلاقات غير المتكافئة في زيادة تخلف الأمة العربية اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مثلما أوضحت في الفصل الأول من هذه الدراسة؟

إن قيام الأمم وسقوطها لا يخضع، كما يذهب إلى ذلك الأنصاري، إلى عوامل مادية فقط وإنما تشكل الثقافات والتطلعات والمصالح أسبابا قوية تفضي إلى قيام الوحدات السياسية الكبرى. وهاهي أمة أوروبا قد اتجهت إلى الوحدة السياسية والاقتصادية ليس تحت تأثير عامل بعينه وإنما شكّلت العوامل الثقافية والاقتصادية والأمنية والدولية المشتركة الأسس التي تقوم عليها وحدتها وتطلعاتها.

أما في حالة الأمة الإسلامية فلا يمكن أن تفهم أوضاعها في حالة الرخاء أو الشدة إلا من خلال التفسير الإسلامي الذي يقدم رؤية واضحة لا لبس ولا غموض فيها.

فالعرب قبل الإسلام الذين كان باسهم بينهم شديد يقطعون الأرحام ويعتدي بعضهم على بعض ويقتتلون فيما بينهم لأتفه الأسباب، أعاد الإسلام صياغة هذه الأوضاع الجاهلية ليوجد من جديد الإنسان المؤمن والمجتمع المؤمن الذي كان من سماته المميزة ما قاله الله تعالى فيهم:

(محمد والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا يبتغون فضلا من الله ورضوانا)

لقد كانت هذه الفئة هي التي قاتلت ودكت حصون الكفر وقلاع الجاهلية وهي التي أقامت العدل في الأرض ونفت وأوقفت مدّ الظلم والطغيان الذي كانت تمارسه الأمم الجاهلية الكبرى في تلك الفترة وبالذات الفرس والروم.

أما ما صنع الواقع المرير الذي يعيش فيه المسلمون منذ قرون فهو نتيجة تفريطهم في دينهم وتخليهم عن أوامره ونواهيه التي عندما ضيّعوها،ضاعت منهم الوحدة السياسية والقوة الاقتصادية والمكانة الدولية.

هذه الحقيقة الكبرى والثابتة في التاريخ الإسلامي ذكرها العّلامة الشهير والمؤسس الأول لعلم الاجتماع الإسلامي ابن خلدون في مقدمته الشهيرة. إذ يكتب فصلا خاصا عن أن " الظلم مؤذن بخراب العمران" ويعقد فصلا آخر يرى فيه " أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم" وطالما أن د. الأنصاري قد حدد العامل الجغرافي وتأثيره قديما في منع قيام التواصل بين المجتمعات وبالتالي قيام الوحدة السياسية بين العواصم الحضرية في العالم الإسلامي وهو ما ينم عن قراءة سطحية وضحلة للتاريخ الإسلامي من جهة وتزييفا للتاريخ من جهة أخرى بل وتضليلا وانحرافا بالقارئ المسلم عن الأسباب الحقيقية وراء محنة الأمة فإن باحثا متعمقا في التاريخ الإسلامي يقدم الأسباب الجوهرية والحقيقية التي مزّقت وحدة الأمة السياسية وذهبت بأمنها واستقرارها ودمرت هيبتها وأفقدتها عزتها، بل ويقدم تماثلا مع العلاّمة ابن خلدون في منطلقات التفسير للأحداث التي هزّت الأمة والنتائج التي أفضت إليها حركة المجتمع والدولة.

بعد دراسته الوافية والعميقة للتاريخ الإسلامي يرى الشيخ العلامة أحمد شاكر أن أهم الأسباب التي أضعفت الدولة العباسية في الفترة الممتدة من 247-656 وأدت إلى انهيارها هي كالتالي:

- تسلّط العسكريين على الحكم.
- نشوء الدويلات.
- الترف.
- الحركات الباطنية.
- الغزو الصليبي.
- الغزو المغولي.

ويمكننا أن نلاحظ أنه بينما ركز العلاّمة ابن خلدون على دور العوامل الداخلية مثل الترف والظلم في إضعاف الدولة الإسلامية نجد أنّ الشيخ أحمد شاكر يبرز من خلال قراءته الموسوعية للتاريخ دور العوامل الداخلية والخارجية على حد سواء والتي يمثل الغزو الصليبي والمغولي أخطر العوامل الخارجية على الإطلاق.

وعندما نقارن بين النتائج الحقيقية (كما أبرزها ابن خلدون وأحمد شاكر)[7] وراء تدهور الحضارة الإسلامية ومن ثمّ انهيارها وبين ما يقدمه د. محمد جابر الأنصاري سنجد فرقا هائلا وواسعا.
سنجد في أعمال العلاّمة ابن خلدون و الشيخ أحمد شاكر الصدق والموضوعية في إبراز الحقائق التاريخية عن الأمة الإسلامية والأسباب التي أوصلتها إلى الانهيار ووقوعها تحت سيطرة الأعداء عليها وخصوصا في العصر الحديث ومن ثمّ:

1. فإن لهذه المصداقية في التعاطي مع الحقائق التاريخية وقع مؤثر على الإنسان المسلم. أولا إنها تبين له عمل السنن الربانية في الأمة الإسلامية عندما تكون مطبقة لمنهج الله رب العالمين وعندما تكون منحرّفة ومضيعة للأوامر والنواهي. فهل لو كانت الأمة الإسلامية وخصوصا على المستوي السياسي، تعمل بأمر الله سبحانه وتعالى عندما يخاطبها بقوله سبحانه (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) " البقرة/244" وأمره سبحانه (وأعدوا لهمّ ما استطعتم من قوّة ومنّ رباط الخير ترهبون به عدّو الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوّف إليكم وانتم لا تظلمون) "الأنفال/ 60" أقول هل كانت ستتعرض للغزو الصليبي أو الغزو المغولي ناهيك عن آثارهما المدمّرة والوحشية في كيان الأمة الإسلامية؟
2. أنها تنشئ في نفس المسلم ووجدانه دروسا بليغة وعظات مؤثرة تجعله يدّكر أوامر الله ونواهيه وتمكّنه أن يميز بين ما ينفعه ويضره في الدنيا وكيف يصلح آخرته التي لا تلصح إلا باتباع منهج وصراط العزيز الحميد. وبالتالي يصوغ المسلم سلوكه وأعماله وفق مقتضيات المنهج الرباني وبالتالي يوجد "الإنسان الصالح" الذي يعمّر ولا يهدم وينفع ولا يضر ويصلح ولا يفسد ويصل ما أمر الله به أن يوصل ولا يقطع ويكون ثمرة نافعة لنفسه وللمجتمع وأحد العوامل الأساسية في استقرار المجتمع المسلم.
3. أنها درس بليغ للقيادات السياسية والأنظمة الحاكمة عندما تتبع منهج الله وتترك وتهجر سُبل الضالين والمغضوب عليهم من النصارى واليهود. فمن الذين خاضوا حروبا شرسة وطاحنة ضد المسلمين وقتّلوا فيها الأطفال والشيوخ وهزّوا استقرار المجتمع؟ ألم يكن الصليبيين ومن ثم المغول؟
4. أليس دور الصليبية اليوم في القرن العشرين والواحد والعشرين واضح المعالم في استنزاف ثروات المسلمين وتدمير طاقاتهم

---

[7] على الرغم أنه لا مجال للمقارنة بين النتائج الجوهرية التي توصل إليها أهل العلم وبين أدعياء العلم مثل الأنصاري وأضرابه ولكن الضرورة المنهجية تقتضي ذلك.

وإثارة القلاقل والفتن في ديارهم ومعاونة أعداء المسلمين عليهم وعلى رأسهم الدولة اليهودية الملعونة؟
من الذين يعين اليهود على قتل إخواننا في فلسطين ويمدهم بالمال والسلاح؟ أليست هي أمريكا وأوروبا وبصمت مخزٍ من روسيا؟ من الذي قتل أطفال العراق ونساء العراق وشيوخ العراق عن طريق حصار ظالم كافر لا يرحم حصد أرواح ما لا يقل عن مليوني طفل برئ ثم احتلاله للسيطرة عليه وتدمير أي قوة قد تهدد الوجود اليهودي في فلسطين الغالية؟
إنها الصليبية تكرر أفعالها في المسلمين.
وأخيرا إنها دروس مهمة لعامة الأمة كي يعرفوا صديقهم من عدوهم فلا تختلط عليهم التصورات فيخُدعون والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.
أما إذا نظرنا إلى فكر الأنصاري وأطروحته عن الجغرافيا وأثرها على الواقع السياسي فلن نجد لها تحقق أو صدق في عالم الواقع بل وإن التاريخ الإسلامي وما وقع فيه من أحداث والواقع المعاصر للمسلمين وما فيه من تحديات ومآس والآم شكّلتها العوامل الداخلية والقوى الخارجية تجعل فكر الأنصاري ليس إلا عبثاً فكرياً وتأملات تافهة لا تؤثر في حس المسلم ووجدانه ولا ترتقي بالأمة و واقعها.
إنه العلم الذي لا ينفع كما وصفه سيد المرسلين عندما تعوّذ منه.
إنه الفكر الجاهلي الذي يتبع الهوى ويرفض الاهتداء بما أنزل الله فأضله الله على علم.

محمد عابد الجابري:
يعد محمد الجابري من أخطر المفكرين العلمانيين. ومكمن خطورته في مجاهرته بعدائه الصريح للإسلام ومحاولاته الدءوبة لهدمه وإنشاء نموذج فكري بديل يكوّن الأسس التي تنهض عليه الأمة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولذلك تعد كتبه المختلفة "بنية العقل العربي" تكوين العقل العربي" "العقل السياسي العربي" نحن والتراث" محاولة في هذا الاتجاه لعلمنة الرؤية العربية والإسلامية- على مستوى الأفراد-لأمر النهضة والتخلف.
بل وينظر الجابري إلى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام ويقرئها-بكل وقاحة وتجرأ على الله- ككل الدعوات والتجارب السياسية الأرضية التي قام بها السياسيون والإصلاحيون في الأزمان المختلفة. وبالتالي، لماذا لا يتم تغييرها حتى تتوافق مع متطلبات النهوض من التخلف الذي تعيش فيه الأمة الإسلامية؟
هذا هو الأساس المحوري الذي يقوم عليه فكر الجابري وكتبه تشهد عليه في الدنيا قبل أن تشهد عليه في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون.

لنتعرف أولا على نظرته إلى الإسلام. يقول الجابري بعد أن يقدم تحفظه على بعض الروايات التاريخية التي تظهر أن "الدعوة المحمدية" كما يسميها كانت دعوة سياسية ذات مشروع سياسي:

(هذه التحفظات لا تمنع إطلاقا من قراءة الدعوة المحمدية قراءة سياسية من نوع ما. ذلك لأن خصوم هذه الدعوة، وهو الملأ من قريش، قد قرأوها منذ البداية قراءة سياسية فمارسوا السياسة ضدها.
إنهم رأوا فيها دعوة تستهدف الإطاحة بما كان يشكل أساس كيانهم الاقتصادي، وبالتالي سلطتهم السياسية بل وجودهم ذاته. إن الهجوم على الأصنام والدعوة إلى عبادة إله واحد، حتى ولو كان صادرين من موقع "العقيدة" فقط كما فعلت الدعوة المحمدية، معناهما الدعوة للإطاحة بما كان يشد القبائل العربية إلى مكة للحج وما يرتبط به من تجارة، وبالتالي القضاء على مصدر قريش، سلطتها الاقتصادية والسياسية.هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يكن من الممكن أن تبقى الدعوة المحمدية سلبية أمام ممارسة قريش السياسة ضدها، بل لقد كان من الضروري، وهذه هي سنة الحياة، أن تحاربها بنفس سلاحها، أو على الأقل كان لا بد لها من أن تجعل السلاح السياسي من جملة أسلحتها وذلك ما حصل فعلا)[8]

ماذا يمكن أن تقرأ من هذا النص؟ أولا: استخدامه لتعبير " الدعوة المحمدية" وبذلك لا يكون محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام، رسول الله، ولكنها دعوة من عند محمد تحت راية رسول الله. وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام هو الذي يحدد أهداف الدعوة وخططها وجميع شئونها شأنه في ذلك شأن كل السياسيين وليس لله توجيه في أمر الرسول والرسالة.
ولذلك يقول الجابري: " وهكذا فعلاقة الآباء مع أبنائهم في الحاضر كما في الماضي هي هي: الآباء ضالون وهم أورثوا الضلال لأبنائهم ,وإذن يجب على الأبناء أن "يقطعوا" مع آبائهم في هذه المسألة: عبادة الأصنام. والدلالة السياسية لذلك هو أن الدعوة المحمدية كانت تتجه إلى الأبناء، خاصة إلى الشباب لأنهم رجال المستقبل، والدعوة –أية دعوة- تتجه إلى المستقبل"[9]
ثانيا: ويفهم من النص الثاني للجابري أن قول الله سبحانه وتعالى " وما أرسلناك إلا للناس كافة" غير مهم لدى مبلغ الرسالة (محمد عليه الصلاة والسلام) فليس من المهم لديه أن يُسلم لله كبار السن وإنما

---

[8] محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي: محدداته وتجليا ته، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1990، ص،59-60
[9] مرجع سابق، ص 71

الشباب وليس مهم لديه أن تُسلم القبائل الضعيفة في الجزيرة العربية وإنما القبائل القوية حتى تقوى شوكة دعوته ويكثر أنصاره ويزداد نفوذه ويقوى سلطانه. ثالثا: وبناء على التصور الضال للجابري، فإن دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام دعوة انتقائية تميز في الدعوة بين أقوام وآخرين وتصطفي أناس على آخرين بما يخدم حاجاتها الآنية والمستقبلية و لأنها دعوة أرضية لها مآرب سياسية تمثل إقامة الدولة - يكون محمد زعيمها وقائدها السياسي والتي لها أهداف دنيوية- غايتها ومنتهى جهودها و أقصى أحلامها وذروة طموحها. هذا ما يُفهم من كلام الجابري وهو القائل أنه سيقرأ دعوة محمد قراءة سياسية.
رابعا: أن الجابري يقدم للقارئ تصورا معينا عن سيد الأولين والآخرين محمدا عليه الصلاة والسلام. إنه يقدمه كأي سياسي له أهداف دنيوية محددة. وعندما يتم ذكر السياسيين فإنه ينبغي أن يكون واضحا أن السياسيين- أيا كان جنسهم أو وطنهم أو أفكارهم التي يقدمونها أو دعواتهم التي ينادون بها أو وعودهم التي يبشرون بها- يستخدمون كافة الأساليب من شريفة ودنيئة للوصول إلى غاياتهم ومبتغاهم. ومحمد عليه الصلاة والسلام –على حد زعم الجابري رأس الفكر العلماني الفاسد في العالم الإسلامي - يندرج ضمن طائفة السياسيين الساعين لتحقيق أهداف سياسية وأغراض أرضية ومقاصد شخصية.
ونحن نقول أن الله سيحاسبك يا محمد عابد الجابري. ونقول أن هذا الكلام افتراء على الله وعلى رسوله. ونحن نقول أنّ هذا الكلام كفر بالله وبرسوله وبالقرآن والسنة وباليوم الآخر وأن على هذا الطاغوت أن يتوب إلى الله وإلا حُشر مع فرعون وهامان وقارون.
نحن في هذا الكتاب ليس موضوعنا هو الرد على أكاذيب الجابري ومغالطاته عن الإسلام والمسلمين ولكنّا أردنا أن نبين تصوراته عن الإسلام ليكون مدخلنا إلى قراءة أفكاره عن مقومات النهضة في العالم الإسلامي.
من وجهة نظر الجابري كيف يمكن تطوير العقل السياسي العربي لينعكس ذلك إيجابا على الأداء السياسي العربي؟ يتبن ذلك من خلال اعتراف الجابري في كتابه العقل السياسي العربي أنه" كل كتابة في السياسة هي كتابة سياسية متحيزة ونحن متحيزون للديمقراطية"[10] هذه العبارة تبين بكل جلاء أفكار الجابري واتجاهاته. وعلى أساسها يبني الحلول لمشكلات الأمة. يقول الجابري:

(إعادة تأصيل الأصول في الفقه السياسي الإسلامي ضرورة ملحة، ولكن هل يكفي ذلك وحده لتجديد العقل السياسي العربي؟

---

[10] مرجع سابق، ص 365

لا نعتقد. أن إقرار نظام دستوري ديمقراطي حديث تدبير يفسح المجال فعلا لغرس الحداثة السياسية وترسيخها، ولكن العقل السياسي لا يتحكم فيه شكل نظام الحكم وبنوده الدستورية فحسب، بل هو محكوم أساسا بمحددات، اجتماعية واقتصادية وثقافية. وبالنسبة للعقل السياسي العربي فأن تجديد محدداته الثلاثة(القبيلة، الغنيمة، العقيدة) شرط ضروري للارتفاع به إلى المستوى الذي يستجيب لمتطلبات النهضة والتقدم في العصر الحاضر. وهذا التجديد، تجديد المحددات، لا يمكن أن يتم إلا بالعمل من أجل تحقيق النفي التاريخي لها، وذلك بإحلال البدائل التاريخية المعاصرة)[11]

وواضح من كلامه أن النفي التاريخي –كما يزعم- إنما للمحددات الثلاثة : القبيلة والغنيمة والعقيدة. ونحن لا يهمنا ما يقدم من تصورات في شأن نفي القبيلة والغنيمة ولكن ما يهمنا هو تصوره عن إحلال البدائل التاريخية المعاصرة في ما يتعلق بشأن العقيدة. يري الجابري أن المطلوب من أجل تجديد العقل السياسي العربي ثلاثة أمور:

تحويل القبيلة في مجتمعنا إلى لا قبيلة.

تحويل الغنيمة إلى اقتصاد ضريبة.

تحويل العقيدة إلى مجرد رأي. ولماذا ينبغي تحويل العقيدة إلى رأي؟ يبين الجابري الأسباب قائلا:

(فبدلا من التفكير المذهبي الطائفي المتعصب الذي يدعي امتلاك الحقيقة يجب فسح المجال لحرية التفكير، لحرية المغايرة والاختلاف، وبالتالي التحرر من سلطة الجماعة المغلقة، دينية كانت أو حزبية أو إثنية، إن تحويل العقيدة إلى رأي معناه: التحرر من سلطة عقل الطائفة والعقل الدوغمائي، دينيا كان أو علمانيا، وبالتالي التعامل بعقل اجتهادي نقدي)[12]

وقد كذب الجابري ودس السم في العسل. إن منطلق الجابري في قراءة دعوة النبي عليه الصلاة والسلام الناس إلى الله هو أنها كانت دعوة سياسية، شأن كل الدعوات السياسية في التاريخ القديم والحديث. وطالما أنها كذلك- كما يفهمها الجابري المغلق البصر والبصيرة- كما أوضحنا من قبل فلماذا لا يتم إبطالها والتغيير فيما جاءت به وهو الإسلام حتى يتمكن من استيعاب متطلبات النهوض الحضاري؟

ويتبين من اطروحات الجابري المادية العلمانية أن الإسلام كدين خاتم رضيه الله للناس، غير مكتمل ولا يتيح الاختلاف في الرأي ولا حرية التفكير ومن يعتنقه يصبح "متعصبا" لا ليونة ولا أخلاق لديه، بله يريد

---

[11] مرجع سابق، ص 373

[12] مرجع سابق، ص 374

إعادة صياغة العقيدة على الطراز الديمقراطي الذي يؤمن بـه ويـدعوا الناس إليه لتكون فيها حرية الرأي والاختلاف.
أي غيّ ذهب إليه الجابري وأي كفر بلغه هذا المفكر الجاهلي. لـو كـان لديه أدنى بصيرة ومصداقية لتوصـل أن الإسـلام غنـي بـذاته، مكتمـل، شامل لخيري الدنيا والآخرة لأنه من عند الله رب العالمين الذي أحاط بعلمه كل شيء ولأنه الأول والآخر والظاهر والباطن.
هدف الجابري الأول والأخيـر هـو إعـادة بنـاء الأمـة مـن جديـد: ثقافيـا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا على الأسس الفكرية والثقافية للغرب.
إنه يريد انتزاع الإسلام دين الله الخالد ليضع بدلا عنه إله جديد: الغـرب وأفكـاره. وبـذلك تتمكـن مجتمعاتنـا مـن أن تتحـول إلـى مجتمعـات متقدمـة يكـون الإنتـاج الصـناعي والنمـو الاقتصـادي والتفكيـر المـادي العقلاني والتطـور السياسـي علـى الأسـاس الـديموقراطي والنهـوض الاجتماعي أبرز خصائصها، وبذلك نكون أهلا لأن نشارك فـي الحضـارة المعاصرة ونؤثر فيها. وهناك وسائل موصلة إلى هذا الهدف. يقول في أحد مقالاته عن كيفية تحديث الثقافة العربية:
(ونحن نعتقد أنه ما لم نمارس العقلانية في تراثنـا ومجتمعنـا ونفضـح أصول الاستبداد ومظاهره فيهما معا وبعبارة أخرى فإننا مـا لـم نعمـل على تجديد ثقافتنا ومجتمعنا من داخلهما، لن ننجح في تأسـيس حداثـة بنا، حداثة ننخرط بها في الحداثة المعاصـرة العالميـة كفـاعلين وليـس منفعلين
والتجديد من الـداخل يجـب أن يكـون اسـتراتيجية عامـة، سـواء تعلـق الأمر بالثقافة العالمة أم بالثقافة الجماهيرية)[13] ثم يقول:
كيف يمكن للفكـر العربـي المعاصـر أن يسـتعيد ويسـتوعب الجـوانب العقلانية والليبرالية في تراثه ويوظفها توظيفا جديد في نفـس الاتجـاه اتجاه محاربـة الإقطاعيـة والعقلانيـة والتواكليـة وتشـييد مدينـة العقـل والعدل مدينة الديموقراطية والعدالة الاجتماعية)[14]
وواضح أن السؤال الذي يطرحـه الجـابري يحمـل الإجابـة فـي طيـاته. فمصـطلحا العقلانيـة والليبراليـة المسـتمدا مـن القـاموس الثقـافي والسياسي الغربي تعكس ما يريد الجابري بعثه من الـتراث الإسـلامي الذي يحوي إنتاج العلماء الصادقين من علوم التفسير والحديث والفقه واللغة العربية والتاريخ وكذلك ما أنتجته الفـرق المنحرفـة فـي فهمهـا لأصول الإسلام (القـران والسـنة) . فهـل يريـد الجـابري إحيـاء تـراث العلماء الصادقين كابن تيمية واحمـد ابـن حنبـل أو الشـافعي أو سـيرة الأبطال المجاهدين كصلاح الدين أو يوسف ابن تاشـفين؟ كلا إنـه يريـد أن يحي ويروج لفرقة واحدة في تاريخ الإسلام: المعتزلة. ولكن لماذا؟

---

[13] محمد عابد الجابري ومحمد محمود الامام ، التنمية البشرية في الوطن العربي: الأبعاد الثقافية والمجتمعية، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (ألاسكوا) 1995، ص 26
[14] مرجع سابق، ص 26

لأنها الفرقة التي أعلت من شأن العقل في فهم القران الكريم ولم تأخذ بأقوال النبي عليه السلام وأقوال السلف الصالح.
هذه الفرقة الضالة في تاريخ الإسلام التي أثارت الرعب في صفوف العامة من المسلمين ناهيك عن دورها في خلق البدع الضالة والتنكيل بالعلماء المنكرين يقول الجابري عن المعتزلة:
(نخلص من دراسة وضع المعتزلة زمن المحنة[15] إلى النتيجة التالية: لقد كانوا النخبة المثقفة" الليبرالية التنويرية"[16]-بلغة عصرنا- النخبة التي تعتمد العقل في فهم الدين أكثر من اعتمادها على المرويات عن السلف بما في ذلك الحديث)[17]
والسؤال المهم الذل ينبغي طرحه: هل بعث الفكر الاعتزالي في الأمة أو تحويل العقيدة إلى رأي لإتاحة الفرصة لاختلاف الرأي كفيل أن يحقق للأمة نهضة فكرية، كشرط أولي وقاعدة أرضية، يعقبها نهضة اقتصادية وصناعية واجتماعية؟
تاريخيا، هل استطاعت الأمة أن تحقق وجودها وتبلغ دين الله إلى أمم الأرض عندما حوّرت في الإسلام أم أنها لم تكن قوية إلا عندما استمسكت بدين الله رب العالمين وطبقته في واقع الأرض؟ لنأخذ على سبيل المثال انتصار المسلمين على أقوى أمتين في الأرض: الفرس والروم. كيف كان الوضع الإيماني للمجاهدين في تلك الفترة. هل كان متراخيا نتيجة لعدم اقتناعهم بما جاء من عند الله وبلّغه رسوله عليه السلام أم أن الإسلام والرغبة في نشره في الأرض كان يغلي ويثور في نفوسهم فلا إيمان إلا بدين الله العظيم ولا إخلاص إلا لله رب العالمين؟
سنستخدم ذات المنهج الذي استخدمه محمد عابد الجابري في كتبه وخصوصا في كتابه"العقل السياسي العربي" وهو اللجوء إلى النصوص التاريخية. ولكن الفرق أنه بينما وظّف الجابري النصوص التاريخية من أجل تقديم قراءة سياسية يبتدعها من عند خياله وأوهامه لتخدم أهدافه و تؤيد أفكاره التي يسعى لإثباتها والترويج لها بين عامة أفراد الأمة فإننا لن نقوم بذات الأسلوب المتحيز الذي يراد به خداع القارئ المسلم. إننا سنكتفي فقط بإيراد بعض النصوص التي تبين حوادث وقعت في صدر التاريخ الإسلامي ثم نقارن بين ما وقع في هذه الحوادث وبين أطروحة الجابري عن الارتقاء بالعقل العربي- الذي يقدمه "كبديل" عن الإسلام- لينهض بالأمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. وأخيرا، لن نقوم بتقديم أي قراءة متحيزة ولكننا سنجعل

---

[15] أي محنة القول بخلق القران التي ابتدئت في عهد المأمون
[16] التنصيص من عند الكاتب وليس من عندنا نحن.

[17] محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995، ص 114

الأحداث تتكلم عن نفسها لتكون داحضة للفكر الجاهلي الذي يقدمه الجابري.
ذكر ابن كثير انه بعد أن قبل معركة القادسية بقيادة سعد بن وقاص رضي الله عنه وجيش الفرس بقيادة رستم وأنه كان في مائة وعشرين ألف جندي، يتبعه ثمانون ألف ومعه ثلاثة وثلاثون فيلا، بعث سعد جماعة من السادات منهم النعمان بن مقرن و فرات بن حبان و حنظلة بن الربيع التميمي وعطارد بن حاجب والأشعث بن قيس والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معدي كرب يدعون رستم إلى الله عز وجل. ولنقرأ هذا الحديث الذي دار بينهم وبين رستم.
رستم: ما أقدمكم؟
قالوا (أي السادات الذين بعثهم سعد): جئنا لموعود الله. أخذ بلادكم وسبي نساءكم وابنائكم وأخذ أموالكم، فنحن على يقين من ذلك[18].
وذكر ابن كثير عن سيف بن عمر: أن رستم طاول سعدا في اللقاء حتى كان بين خروجه من المدائن وملتقاه سعدا بالقادسية أربعة أشهر كل ذلك لعله يضجر سعدا ومن معه ليرجعوا، ولولا أن الملك استعجله ما التقاه. وهنا يذكر ابن كثير عدة أسباب عن رغبة رستم في تأجيل اللقاء بينه وبين جيش سعد. من أهمها كما يذكر ابن كثير " لما يعلم من غلبة المسلمين لهم ونصرهم عليهم، لما رأى في منامه، ولما يتوسمه، ولما سمع منهم"[19]

ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى أن يبعث إليه برجل عاقل عالم. فبُعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. فلما قدم دار الحوار التالي:
رستم: إنكم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول إلى بلادنا.
المغيرة: إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله إلينا رسولا قال له: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم، منهم، وأجعل لهم الغلبة مادامو مقرين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه إلا ذل ولا يعتصم به إلا عز.
رستم: فما هو؟
المغيرة: أما عموده الذي لا يصلح شيء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله.
رستم: ما أحسن هذا؟ وأي شيء أيضا؟
المغيرة: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.
رستم: وحسن أيضا وأي شيء أيضا؟

---

[18] أبي الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار الكتب العلمية، ج 4 ،ص 39
[19] مرجع سابق، ص 39

المغيرة: والناس بنو آدم فهم أخوة لأب وأم.[20]
ثم بعث سعد رسولا آخر وهو البطل ربعي بن عامر ودخل وهـو يلبـس ثيابا صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة ولم يـزل راكبهـا حـتى داس بها على طرف البساط ثم نـزل وربطهـا ببعـض تلـك الوسـائد. ثـم دار الحوار التالي بين رستم وربعي :
رستم: ما جاء بكم؟
ربعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فمـن قبـل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدا حتي نفضى إلى موعود الله؟
رستم ومن معه: وما موعود الله؟
ربعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.
رستم: قد سمعت فهل لكم أن تؤخروا هـذا الأمـر حـتى ننظـر فيـه و تنظروا؟
ثم دار بينهما حديث عن تأخير القتال. ثم سأل رستم ربعي فقال:
رستم: أسيدهم أنت؟
ربعي: لا: ولكن المسلمون كالجسد الواحـد يجيـر أدنـاهم أعلاهـم. ثـم بعد أن انتهى الحوار بينهمـا، اجتمـع رسـتم برؤسـاء قـومه فقـال: هـل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا معـاذ اللـه أن تميـل إلى شيء وتدع دينك إلى هذا الكلب، أما ترى إلي ثيابه فقال ويلكـم لا تنظروا إلى ثيابه وانظروا إلي الـرأي والسـيرة. أن العـرب يسـتخفون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب.[21]
هؤلاء الأبطال العظام عند الله والعظام في ميـزان التاريـخ هـم الـذين صنعوا ،بعد توفيق الله وعونه، معركـة القادسـية العظيمـة الـتي هـزم فيها الفرس الوثنيون وانتصر فيها دعـاة الحـق الموحـدون. لقـد كـانوا يتبعون الحق غير مبتدعين ولا مفرطيـن. ويحـدثنا ابـن كـثير عـن قائـد المعركة سـعد بـن وقـاص ومـا جـرى فيهـا مـن هزيمـة نكـراء لجيـش الفرس الوثني:
(فصلى سعد بالنـاس الظهـر ثـم خطـب النـاس فـوعظهم وحثهـم وتلا قوله تعالى (ولقـد كتبنـا فـي الزبـور مـن بعـد الـذكر أن الأرض يرثهـا عبادي الصالحون) وقرأ القراء آيات الجهاد وسوره ثم كبر سـعد أربعـا ثم حملوا بعد الرابعة فاقتتلوا حتى كان الليل فتحاجزوا وقـد قتـل مـن الفريقين بشر كـثير ثـم أصـبحوا إلـى مـواقفهم فـاقتتلوا يـومهم ذلـك وعامة ليلتهم ثـم أصـبحوا كمـا أمسـوا علـى مـواقفهم، فـاقتتلوا حـتى أمسوا ثم اقتتلوا في اليوم الثالث كـذلك وأمسـت هـذه الليلـة تسـمى

---

[20] مرجع سابق، ص 39-40
[21] مرجع سابق، ص 40

ليلة الهر ير، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالا شديدا وقد قاسوا من الفيلة بالنسبة إلى الخيول العربية بسبب نفرتها منها أمرا بليغا، وقد أباد الصحابة الفيلة ومن عليها وقلعوا عيونها وأبلى جماعة من الشجعان في هذه الأيام مثل طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب، والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الخطاب وخالد بن عرفطة واشكالهم واضرابهم، فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم ويسمى يوم القادسية وكان يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة كما قاله سيف بن عمر التميمي، هبت ريح شديدة فرفعت خيام الفرس عن أماكنها وألقت سرير رستم الذي هو منصوب له فبادر فركب بغلته وهرب فأدركه المسلمون فقتلوه وقتلوا الجالينوس مقدم الطلائع القادسية وانهزمت الفرس ولله الحمد والمنة)[22]

هذه النصوص التي تبين أحداث تاريخية كبرى رسمت للأمة الإسلامية موقعا جديدا في التاريخ وأعطاها القوة التي تمتد بها قرونا بعد فترة النبي الكريم ينبغي أن يجعلنا نطرح سؤالا محددا: ما الذي جعل المسلمون يصنعون الانتصارات تلو الانتصارات وأن تنهار بذلك أقوى أمتين في تلك الفترة الفرس والروم؟ ربما أن السؤال بدهي وأن الإجابة بدهية كذلك: الإسلام هو الذي صنع مجد المسلمين في الماضي يوم أن كانوا مستمسكين بالكتاب والسنة ويطبقونهما في كافة شؤون حياتهم. ولكن هل التيار العلماني المثقف في بلادنا الإسلامية يؤمن كذلك بهذه الفكرة ويسعى ويجتهد في بعثها في نفوس أبناء الأمة؟ كلا. إن كتابات التيار العلماني وأفكاره تثبت مهما حاولوا توريتها أنهم ضد الإسلام وضد البعث الإسلامي القادم الذي لا نشك بإذن الله أنه سيرث الأرض متى ما صدق مع الله سبحانه وتعالى كما صدق جيل الصحابة مع الله ورسوله فأورثهم الله ديار المشركين وأموالهم.

لقد كان تمسك سعد بن وقاص والمغيرة بن شعبة وربعي بن عامر رضي الله عنهم بأوامر الله ونواهيه هي التي مكنتهم من الانتصار العظيم في معركة القادسية المجيدة. لقد كانوا حملة رسالة وقيم السماء التي كانوا يريدون بها تحرير البشرية من عبودية بعضهم إلى عبودية الله رب العالمين كما جسدتها عبارات المغيرة وربعي بن عامر رضي الله عنهم وأرضاهم.

كانوا يدركون أن الإمبراطورية الفارسية كان تفرض الذل والهوان على شعوبها وتخلق الظلم وتوجد الطبقات الغنية والفقيرة والفئات الظالمة والمظلومة والقوية والضعيفة شأنها شأن كل الجاهليات الأرضية القديمة منها والحديثة.

---

[22] مرجع سابق، ص 44

كان الصحابة الكرام يدركون ببصيرتهم التي رزقهم الله إياهم لصدقهم مع الله أن أي ابتعاد عن دين الله سيورث الأرض جاهلية مرة يتجرع مرارتها الإنسان الذي خلقه الله ليكون عبدا له لا أن يكون عبدا لشهواته أو طموحه أو نزواته أو أن يكون عبدا لأحد من خلق الله يعتقد في قدرته على النفع والضر أو الخير أو الشر أو أن يبيح له ما حرم الله فيطيعه أو يحرم عليه الحلال فيطيعه.
ولذلك لم يكن للدنيا وزنا عند هذه الجماعة المؤمنة بالله والمتبعة- بكل إخلاص قل أن يشهد التاريخ له مثيلا - له ولرسوله. والنتيجة التي صدقوا الله فيها أن يعرض عليهم رستم الدنيا أو ما يسمى بلغة السياسة الحديثة "التفاوض" يتنازل فيها ذلك القائد الوثني عن بعض المصالح الأرضية مقابل أن يتخلوا عن غزو أرضه وبلاده. لقد كان هذا القائد الجاهلي الوثني يظن أن هؤلاء طلاّب دنيا فيمكن بذلك أن تغريهم الدنيا وزخرفها وهي نظرة كل من يقيم الواقع والأحداث من منظور الدنيا و محدوديتها، ونظرة من أعرض عن الإيمان بمن له تخلص النيات وتوجه له الأعمال، سبحانه رب العالمين.
ولكن الجواب كان حاسما واضحا جليا وقاطعا لا رجعة فيه. " لسنا طلاب دنيا" كما قال المغيرة بن شعبة. إنما يطلبون مرضاة الله. ولذلك ليس إلا الجهاد في سبيله لتدمير ودكّ معاقل وحصون الكافرين الذين يقفون ضد دعوة الله لكي لا تبلغ عباده. وهذا ما فعلوه.
لو كان هؤلاء النفر من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام يهدفون إلى منافع شخصية محدودة وأغراض دنيوية زائلة تتمثل في إقامة دولة كما، يوحي بذلك المفكر الجاهلي محمد عابد الجابري في كتبه المسمومة، لقبل الصحابة(وحاشهم عن ذلك رضي الله عنهم وجعلهم في الفردوس الأعلى) بعروض وإغراءات رستم قائد الفرس ولما عرّضوا أنفسهم للموت وللهلاك.
ولكنهم آثروا الموت في سبيل الله لكي تحيا الأمم حرة كريمة تحت ظل الإسلام. نعم تحيا حرة كريمة عندما تسلم لله رب العالمين. و تحيا حياة كريمة حتى عندما تبقى الأمم علي دينها ولكنها كريمة بمنأى عن الاضطهاد والظلم لأنها تنعم بعدل ورحمة الإسلام.
أخرج ابن عساكر والواقدي عن عبدالله بن أبي حدود الأسلمي رضي الله عنهما قال: لما قدمنا مع عمر بن الخطاب الجابية إذ هو بشيخ من أهل الذمة يستطعم فسأل عنه. فقال: هذا رجل من أهل الذمة كبر وضعف. فوضع عنه عمر رضي الله عنه الجزية التي في رقبته وقال كلفتموه الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطعم؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال.
هذا هو المستوى الذي يريد الإسلام أن يصل بالأمة إليه.....

فلماذا يريد الجابري وأمثاله أن يضرب صفحا عن هذه النماذج والصور العظيمة التي أوجدها الإسلام يوم أن وجد من يـؤمن بـه ويطبقـه كمـا أنزل في الأرض.
يضربون عنها صفحا نعم. لإنهم يريدون بعـث الأفكـار المنحرفـة، الـتي جاءت بها بعض الفرق المنحرفة في تاريخ الإسلام، التي تطُلق للهــوى البشري العنان في فهـم ديـن اللـه العظيـم وتفسـيره وتـأويله حسـب رغباتهم ومعتقداتهم التي يريدون بثها فـي الأمـة لتنحـرف وتضـل عـن الحق الرباني.
إنهم يعرضون عن دين الله لأنهم لا يريدون الإسـلام دينـا شـاملا لحيـاة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم. إنهم يريدون زرع النظام الثقــافي الغربي بنظرته المادية العقلانية النفعيـة واتجاهـاته الشـهوانية ليهيمـن علـى حيـاة المسـلمين فـإذا مـا اقتنعـوا بـه اسـتوردوا بقيـة أنظمتـه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
ولقــد تــوالت منــذ بعثــة النــبي عليــه الصــلاة والســلام الفتوحــات والانتصارات العظيمة التي أعلت دين الله علـى ديـن الكـافرين. ففـي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم فتـح دمشـق وبيـت المقـدس وغزوات عظيمة انتصـر فيهـا المسـلمون علـى أعـدائهم منهـا معركـة النمارق و البويب والقادسية وفتح المدائن.
وفي عهد عثمان بن عفان تم غزو إفريقيا وفتحها علي يد عبد اللـه بـن سعد بن أبي سرح وتم كذلك فتح الأندلس وقبرص وفـي عهـده رضـي الله عنه كذلك انتصر المسلمون على الروم في معركة ذات الصـواري الشهيرة. إذ يقول ابـن كـثير عنهـا" وضـربت الأمـواج فـي عيـون تلـك السفن حتى ألجأتها على الساحل وألقت الأمـواج جثـث الرجـال حـتى صـارت مثـل الجبـل العظيـم وغلـب الـدم علـى لـون المـاء، وصـبر المسلمون يومئذ صبرا لم يعهد مثله قط"[23]
ثـم تمضـي السـنون والعقـود والقـرون ويكتـب اللـه انتصـارات كـبرى للمسلمين على أعدائهم. ففي معركة الزلأقة الشـهيرة بقيـادة البطـل يوسف ابن تاشفين و معركة حطين الكبرى بقيادة صلاح الـدين انتصـر المسلمون على الصليبين. وفي معركة عين جالوت انتصر المسـلمون على المغول الوثنيين وفي معركة القسطنطينية كان النصر بفضل الله للعثمانيين على الروم الصليبيين.
المؤرخون من المسلمين وغير المسلمين يدركون تأثير هـذه الأحـداث الكـبرى والفاصـلة فـي مسـيرة التاريـخ الإنسـاني ولإسـلامي. هـذه الأحداث الـتي صـنعتها بفضـل اللـه أيـدٍ ودمـاء مسـلمة بعـد أن بـاعت نفسها لا لرايات الشيطان و الوثنية وإنما لراية التوحيد والربانية.

---

[23] أبي الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار الكتب العلمية، ج 4 ،ص 164

ولنأخذ صلاح الدين قائد معركة حطين الشهيرة التي لا يزال أثرها فـي العقل الغربي. فهل كـان صـلاح الـدين ممـن يؤمنـون بعـزة الكـافرين ومبادئهم حتى يسـتورد أفكـارهم ويسـعى لتطـبيق نظمهـم فـي حيـاة المسلمين؟ وهل كان انتصاره العظيم مبنيا على إصلاحات داخلية كـان الصليبيون مصدر إلهامها؟ كلا والله. لا يفعل ذلك إلا المنهزمين نفسـيا والساقطين إيمانيا.

كان صلاح الدين ممن يؤمنون بالله وبرسوله ووجـوب الانقيـاد الكامـل لدين الله. يقول هاملتون جب عن إخلاص صلاح الدين لدين الله:

(وإذا كانت الحرب التي نذر نفسه لها ضـد الصـليبيين ستصـبح جهـادا حقيقيـا، فمـن الـواجب أن يكـون شـنّها فـي مراعـاة دقيقـة لشـريعة الإسلام المنزلة . فالحكومة الساعية لخدمـة دعـوى اللـه فـي معركـة يجب ألا تكـون حكومـة شـرعية ومخولـة السـلطات تمامـا مـن جـانب الممثل الأعلى للشرع الإلهي فحسب، بل ينبغي لها أن تخدم الله بغيـر مماثلة في إدارتها ومعاملتها لرعاياها)[24]

ثم يضيف جب عن سياسات صلاح الدين الداخليـة الموافقـة للشـريعة الإسلامية:

(ولقد سبق له، خلال سنواته الأولى في مصر، واقتفـاء بالقـدوة الـتي أرساها نور الدين، أن ألغى جميـع أشـكال الضـرائب (المكـوس) الـتي كانت منافية للشرع الإسلامي وكان أول عمل له في دمشق هـو إلغـاء الضـرائب هنـاك. كـانت هـذه ممارسـته الثابتـة كلّمـا ضـمّ شـيئا إلـى أراضيه)[25]

وعن أمانته في التعامل مع أموال الأمة يقول جب:

(فالمصادر ترسم صورة حية للدهشة التي اعترت قادته ورعاياه مرارا وتكرار مـن جـراء عزوفـه التـام عـن المقتنيـات الشخصـية وممارسـة السـلطة، وهـي الـتي كـانت بمثابـة الأهـداف الأولـى لمعظـم الأمـراء والحاكمين ومن جملتهم أبناء بيته)[26]

وعن السبب الرئيس لانتصاره في حطين الشهيرة:

(لقد ألهم صلاح الدين تلك المقاومة العنيدة الـتي انهكـت الغـزاة فـي نهاية الأمر بقوة شخصيته الخالصة وفي جذوة الإيمان المتقدة بـداخله وفي القدوة التي أرساها عن الصمود الثابت)[27]

ويجسد الايمان المتقد بداخل صلاح الدين ما أورده جب (من المصادر التي راجعها عن صلاح الدين) مـن رسـائل صـلاح الـدين إلـى بغـداد إذ يقول فيها:

---

[24] السير هاملتون .آر. جب، صلاح الدين الأيوبي : دراسات في التاريخ الإسلامي، ترجمة: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع،1996, ص ص 124-125

[25] مرجع سلبق، ص 125.

[26] مرجع سلبق، ص 125.

[27] مرجع سلبق، ص 153.

"وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله ،و الكف عن مظالم عباد الله والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغنمه من الدنيا إذا أمنها والله العالم)[28]
والسؤال الذي نطرحه هل الديموقراطية الغربية هي التي صنعت انتصار حطين العظيم وامتداد أثرها المعنوي في التاريخ والحاضر سواء عند المسلمين أو الغربيين؟
سؤال يستطيع الكتاب العلمانيون الجاهليون، لا وفقهم الله، ومنهم محمد الجابري الإجابة عليه ولكنهم لا يريدون، لأن إتباع الهوى قد غلب عليهم فهم في غيهم يعمهون.
ومن يقرأ سيرة بطل معركة الزّلاقة يوسف ابن تاشفين قاهر الصليبيين في الأندلس سيجد كذلك غلبة الإيمان بالله رب العالمين على سلوكه واتباعه الحق الرباني وانصرافه عن الهوى واتباع الشهوات. يقول ابن الأثير عنه" كان حسن السيرة، خيرا، عادلا، يميل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم"[29]
وهذا محمد الفاتح يقول في أشعاره: حماسي بذل الجهد لخدمة ديني ورجائي: في نصر الله وسمو الدولة على أعداء الله.[30]
هل كان هؤلاء القادة العظام على جهل وقلة علم عندما قرروا إحياء الإسلام من منابعه الصافية(القرآن والسنة) في نفوس الأمة لتعود لها قوتها ومجدها الذي لا مجد لها إلا به؟ ألم يكن هؤلاء القادة على علم بالفرق بكسر الفاء وفتح الراء) التي ظهرت في حياة المسلمين وعلى علم بأهدافها ومدى انحرافها عن الحق الرباني وأنها لم ولن تكون أفكارها معينا يستنهض طاقة الأمة ويحرك نفوسها للبذل في سبيل الله كلا ولا يمكن أن تكون خيرا في بناء وعمارة الأمة حيث يصبح الخلق الإسلامي الصادق حاجة ضرورية لا غنى عنها حتى تأتي عمارة الأرض ُأكلها بإذن الله تعالى.
وقد ينجم قول قائل: إنكم معشر الإسلاميين تتحدثون عن الماضي فأنتم" ماضويون" كما قال قائلهم فأين الحاضر؟ والجواب: من الذي يحرك انتفاضة الأقصى ويقود الجهاد في فلسطين هل هي الحركات العلمانية أم الإسلامية؟ ومن الذي دوّخ الملاحدة الروس وطرد روسيا ذليلة مهزومة من الشيشان في أواسط التسعينيات من القرن الماضي أليست هي الحركة الجهادية الشيشانية؟ ألم يكن الداعية المجاهد "خطاب" رحمه الله المطلوب الأول لدى روسيا لدوره العظيم في تحريض الشيشانيين على القتال في سبيل الله وفي

---

[28] مرجع سابق، ص 193 .
[29] عز الدين أبي الحسن الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، 2001، ص 531.
[30] علي محمد الصلّابي، السلطان محمد الفاتح وعوامل النهوض في عصره، إسكندرية، دار الإيمان للنشر والتوزيع، 2000، ص 162.

رسم الخطط العسكرية التي ألحقت الهزائم العظيمة بالروس؟ ومن الذي يقود الجهاد والكفاح في كشمير أو جنوب الفليبين؟ أليس هو التيار الجهادي؟
هنالك فرق كبير وكبير جدا بين من يحاولون أن يبينوا للأمة طريق النجاة والخلاص من أوضاعها وذلها للدول المستكبرة في الأرض وبين من يحاول أن يضلها وأن يصرفها عن طريق الحق الرباني وأن يبقي تبعيتها للمستكبرين في الشرق والغرب تحت عباءة تجديد الفكر والبحث عن سقطاته وسلبياته ومن ثم إظهارها للأمة ومن ثم تقديم البديل على أسس فكرية غريبة عن الأمة وتاريخها وعقيدتها عسى أن يستنهضها من كبواتها.
لا يساورني شك أن الجابري يمثل الفئة الثانية. ولا يساورني أدني شك أن الجابري وفكره سيذهب إلى غير رجعة ولن يحتاج أدنى فرد من هذه الأمة أن يستلهم من فكره ما يرقي بسلوكه أو يصحح فكره أو يقوم اعوجاجه.
وصدق الله العظيم (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) الرعد/17
وصدق الله العظيم في الجابري وأمثاله(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) الكهف/103-104

الدولة التحديثية ودورها في إخفاق النهضة الاجتماعية والاقتصادية في العالم العربي:
لماذا أخفقت النهضة في العالم العربي؟ ما الأسباب الحقيقة وراء تفاقم المشكلات في العالم العربي؟ لماذا تستمر هذه الأزمات رغم جهود الدولة في العالم الإسلامي في تطوير الواقع الاجتماعي والاقتصادي؟ يرى الدكتور برهان غليون أن الدولة في العالم العربي أو ما يسميها بالدولة التحديثية هي المسئولة عن الأزمات التي تعيش فيها الأمة العربية.
الدولة التحديثية، كما يرى برهان غليون لها عدة سمات تميزها عن دولة الحداثة التي وجدت في الغرب. إن الدولة التحديثية في العالم العربي لها سماتها التي تميزها وهذه السمات هي التي تؤدي كما يرى غليون إلى إخفاقها المستمر وعجزها عن إحداث التحولات المطلوبة والحقيقية في المجتمعات العربية. فما هي هذه السمات؟
يري غليون أن الدولة التحديثية هي دولة المركزية الشديدة والسلطة المطلقة. وهي كذلك لأنها نشأت من الحاجة إلى تكسير التوازنات و قلب الأوضاع الاجتماعية والتقنية السائدة التي تحد من الفاعلية الاجتماعية والاقتصادية. ثانيا, أنها غير تمثيلية وغير ديموقراطية. ثالثا،

أنهـا دولـة ذات نزعـة قوميـة أو وطنيـة بمعنـى التمحـور علـى الـذات والدفاع عن السيادة والفضاء اللذين يخصانها.
رابعا، أنها دولة استبدادية. هـذه الدولـة التحديثيـة فـي العـالم العربـي يشهد غليون من خلال دراسته لتطورها ولقيمها ومطامحهـا والوسـائل التي استخدمتها في تثبيت وجودها والغايات التي هدفت إليهـا أنهـا قـد انهارت ولم تستطع أن تلبي طموحات المواطن العربي التي كان يرى الأمل فيها لإنقاذه من الـتردي الاجتمـاعي و التـأزم النفسـي والتـدهور الاقتصادي. يقول غليون:

(وليـس هنـاك مـن يسـتطيع أن يشـير بكلمـة أو حركـة إلـى السـبيل الممكن للرد على تفجر المطالب الاجتماعية والإنسانية والمعنوية فـي مجتمعات فقدت وهي تفقد أكثر فأكثر استقرارها الروحي وتغرق فــي اليأس والإحباط)[31].
ثم يقول:
(لقد قاد إفلاس مشروع التنمية هـذا إلـى انهيـار الطبقـات الوسـطى التي اعتمد عليها بشـكل رئيسـي النمـو الاقتصـادي واسـتند إليهـا فـي العقود المذكورة توازن النظام واستقراره. وهكذا وجد ملاييـن النـاس أنفسهم فجأة من دون عمل ومن دون أمـل فـي المسـتقبل مهمّشـين ومستبعدين من الحياة العامة. لا بل إن شعوبا بأكملها تشعر بالاختنـاق وتستسلم لليأس. أما الإجماع الذي كانت تظهـره النظـم القائمـة فقـد تفجـر تمامـا وتطـايرت أشـلاؤه وأصـبح مثلـه مثـل القيـم والشـعارات الوطنيـة والقوميـة الأخـرى ضـحية الخـوف والانتفاضـات المسـحوقة واحتجاجات الخبز المغرقة بالدم)[32]
ولكن إذا كانت الدولة فـي العـالم العربـي تـواجه الأزمـات والمشـاكل المستعصية و التي أدت إلى وجود أزمة بين الدولـة والمجتمـع العربـي فما الأسباب التي أدت إلى أن تعاني الدولة من أزمـات أظلمـت واقـع الأمة؟ يجيب غليون:
(إن أزمـة الدولـة ليسـت فـي نظـري إلا مظهـرا مـن مظـاهر أزمـة المشروع التاريخي الذي نذرت نفسها له، أعنى تحقيق التقـدم، سـواء من خلال استراتيجيات قومية أم وطنية، انقلابية أم إصلاحية. أنه أزمـة الحداثة ذاتها، لا من حيث هي حالة جديدة ومنظومة قيم لم تستطع أن تتغلب على مقاومة الحالة ومنظومات القيم التقليديـة السـائدة ولكـن بـالعكس مـن حيـث هـي قـراءة للتاريـخ العـالمي ومرشـد للعمـل واسـتراتيجيات مبلـورة أي بمـا هـي مشـروع تـاريخي وفعـل منظـم ومسؤول تقوده نخبة أو دولة أو قوى اجتماعية واعية.)[33]

---

[31] برهان غليون، الدولة ضد الأمة، بيروت ، دار الوحدة العربية، ، 1994 ص، 185
[32] المرجع السابق، ص، 185
[33] المرجع السابق، 214

ثم يضيف قائلا:
(فهذه الأزمة ليست إذن أزمة الدولة الحديثة أو قيمها، قيم الحرية والتقدم والعقل. إنها أزمة الدولة التحديثية التي قادت باسم التقدم والعقلانية والحرية والوطنية إلى عكس أهدافها بسبب الانحرافات الأصلية التي اتسم بها مفهومها والمصالح الاجتماعية التي كانت توجه سياستها وعملها. لقد بنت الدولة صورتها وشرعيتها ومكانتها باعتبارها أداة التقدم التاريخي ووسيلة إدماج المجتمعات المتخلفة في دورة الحضارة وعندما أصبحت الدولة دولة الحزب والطبقة والمصلحة الخاصة وصارت وظيفتها تمكين أصحاب المصالح والجماعات المسيطرة من احتكار الثروة والسلطة التي تسمح لهم وحدهم في الدورة الرأسمالية والحضارية أصبحت تنتج عكس القيم الحديثة التي كانت في أصل شرعيتها أعني قيم التمييز والقهر والعصبية فتهدمت فكرتها لدى عامة الشعب وضعف إيمان النخبة الاجتماعية نفسها بها. وطال ذلك الفكرة الحديثة التي احتضنتها وأصيبت كوسيلة ومبدأ في الصميم)[34]
هذه الشهادة من مفكر علماني تؤيد ما ذهبنا إليه من قبل عندما كنا نتحدث عن الدولة العلمانية في العالم الإسلامي. ولكن الفارق الأساسي هو منطلق التحليل والرؤية لأزمة كانت ولا تزال تعصف بواقع الأمة وتجعلها هزيلة وواهنة أمام أعدائها من اليهود والصليبيين و الملاحدة. إن غليون يسم الدولة التحديثية (التي أسميناها الدولة العلمانية أو الدولة الجاهلية) بأنها دولة الحزب والطبقة وهو ما أدى إلى أن توجه (بضم التاء) طاقاتها- كما يذهب إلي ذلك غليون- ليس وصوب بناء الإنسان العربي المسلم وإنما نحو خدمة أهداف ضيقة لزعيم لا محالة أنه زائل وخدمة فئة طفيلية تلتف حوله و توجه أعماله وسياسته لتستفيد من ثروات الأمة و تعظم من مصالحها. تماما مثل ما ضلل هامان الطاغوت فرعون ليكون مصيرهما النار في الدنيا يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم القيامة يدخلون أشد العذاب كما ذكر لنا مولانا وخالقنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
والدولة في العالم العربي قد فشلت في دورها وفي رسالتها لفشل ووهن وضعف وعدم اتساق رؤى واستراتيجيات وبرامج الذين يقودون الدولة. هذه الأزمة في المشروع وفي الرؤى هو ما يسميه غليون أزمة الحداثة في العالم العربي.
ولكن السؤال الذي نريد من خلال طرحه تقييم الأفكار التي يقدمها غليون عن أزمة الدولة وانعكاساتها المظلمة في واقع المجتمع العربي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا: لماذا كانت منظومة القيم

---

[34] المرجع السابق، 215

والإستراتيجيات التي تبنتها النخب والقوى التي تقود الدولة إلى الدرجة التي لم تعد كما يقول غليون " تلهم أحد ولا توفر حاجات التنمية والأمن والسعادة والحرية والكرامة"؟
الجواب لأنها لم تكن قيما نابعة من عقيدة الأمة التي ظلت تتوارثها الأمة لمدة أربعة عشر قرنا و استطاعت بها أن تبني حضارة انتفعت بثمارها أمم كثيرة، بل متمكنة من خلالها إن على المستوى الفردي أو الجماعي من تجاوز المحن المدمرة و الأزمات الخانقة والمصائب الشديدة التي أطبقت على الأمة دهور مختلفة من الزمن.
إن الذين قادوا الأمة سواء على المستوى السياسي أو الثقافي قد فشلوا. نعم. لأن العقائد والأفكار التي تبنوها وعملوا من خلالها على إعادة صياغة الأمة فكر وسلوكا وأخلاقا كانت "حلولا مستوردة" من الشرق الملحد ومن الغرب الصليبي- اليهودي فكيف يمكن لمثل هذه الأفكار الضالة في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة التي جاءت رسالة الإسلام العظيم لتطهير الأرض منها وتجفيفها من النفوس والقلوب، أقول، أن تنفع الأمة و تنقذها من حيرتها أو أن تخرجها من الأنفاق المظلمة التي دخلت فيها ولم تستطع الخروج منها إلى أيامنا هذه؟
أن استيراد الأفكار من المعسكرات العالمية أمر لم يكن منه بد من قبل الدول العربية والإسلامية لأنها لم تكن لتحظى بأي تأييد سياسي أو دعم اقتصادي يمكنها من تحريك واقعها المتخلف أو أي حماية عسكرية أو دعم سياسي يمكّن لها من البقاء بدون أن تكون هنالك ارتباطات و مواثيق مع الدول الكبرى ألزمتها هذه الارتباطات أن لا يتوقف مدّها على الجانب السياسي وحده وإنما تعداه إلى الجانب الثقافي والسياسة الاجتماعية والاقتصادية.
ومن تطبيق الفكر الغربي في العالم الإسلامي في مجالات الاجتماع والاقتصاد نشأ الظلم والقهر والاستبداد والصراع المرير بين الفئات الاجتماعية المختلفة مما كرّس أزمة العالم الإسلامي التي كانت تتوقع قيادته السياسية أنه لا محالة سيتخلص منها بعد أن يحتك بالغرب و يستفيد منه.
والدليل على ذلك أن كثيرا من الباحثين الاقتصاديين يؤكدون أن سياسات الانفتاح الاقتصادي التي تم تطبيقها في مصر في السبعينيات من القرن الماضي قد أدت إلى دمار اقتصادي تمثل في توقف حركة الاستثمار والإنتاج وتفاقم المديونية الحكومية داخليا وخارجيا وخراب المشاريع الصناعية وتفاقم البطالة بين الشباب المتعلم. أما من الناحية الاجتماعية، فقد ساهمت سياسة الانفتاح إلى زيادة معدلات الجريمة وانتشار الفساد على كافة المستويات ناهيك عن أن هذه السياسة قد أفضت إلى تغلغل الفساد على أعلى المستويات الإدارية

وما صاحب ذلك من اختلاسات هائلة من أمـوال الأمـة تحـت تـبريرات قانونيـة مزيفـة ومـن ثـم حيـازة فئـة محـدودة ذات اتجاهـات لا دينيـة للقسم الأعظم من الثروة ومن ثم بروز فئات اجتماعية واسـعة تعـاني من الفقر واليأس والإحبـاط لا تجـد مـن يرحـم فقرهـا وضـنك العيـش الذي تعاني منه.

إن من ينظر إلى مثل هذه السياسـات الـتي اتُبعـت ونتائجهـا المهلكـة على مستوى الفرد والمجتمع سيصل لا محالة إلى نتيجة جوهرية لفهم أزمتنا هي: أن الثقة في الغرب و اتباعه فكريا وسياسيا واقتصاديا هـي وراء هذه المحن التي عاشتها الأمة ولا زالت تعيشها.

ثم إن الدولة في العالم الإسلامي ولإنجاح مشاريعها التغريبية المدمرة للأخلاق والقيـم تحـت مظلـة التقـدم الاقتصـادي و الاجتمـاعي قـامت بتوظيـف عصـابة مـن العملاء(للدولـة فـي العـالم الإسـلامي وللـدول الكبرى) التغريبيين ووضعتهم في أهم المناصب الكبرى تأثيرا في قيـم الناس وعقولهم فضلا عـن الـدعم السـري و الجهـري لم ن هـم خـارج دوائر الدولة من المفكرين ولكنهم مـن المحسـوبين عليهـا والمتـابعين والمؤيدين لها في اتجاهاتهـا التغريبيـة اللادينيـة والمبشـرين مـن خلال أقلامهم بقيم التغريب ودورها الذي لا غنـي عنـه إن أرادت الأمـة رقيـا وازدهارا.

إذ من ذا الذي يمكن أن ينسى الدور الخطير الذي لعبـه "طـه حسـين" في قطاع التعليم خاصة والحياة الثقافية عامـة فـي مصـر عنـدما كـان وزيـرا للمعـارف ومـن الـذي يمكـن أن ينسـى الآثـار المخربـة لفكـر "ميشيل عفلق" في العراق وسـوريا أو "إحسـان عبـد القـدوس" فـي ترويج الرذيلة عبر رواياته الجنسية أو "زكي نجيب محمـود" فـي تأكيـد القيم النفعية والعقلانية والتنكر لما وراء المادة.

ومن يتابع أثر الدولة وعملاؤها من المفكريـن والكتـاب اللادينييـن فـي المجتمع المسلم سيدرك لا محالة أنها وعبر هذه السنوات الطوال من الحكم العلماني الجاهلي المطلق قد أوهنته وكرّست تخلفـه وأسـلمت رقبته إلى أعداء الأمة في واشنطن وأوروبا.

فـالخراب الـذي أصـاب السياسـات التنمويـة منـذ أن انتفضـت عـرى الخلافة كان ولا يزال مرده إلى الخراب والعفونـة الـتي اصـطبغت بهـا رؤى القيادات السياسية والفكرية في العالم الإسلامي بحيـث عجـزت عن التمييز بين النافع والضار والصديق من العدو.

لذلك فـإن غليـون لـم يسـتطع بشـكل موضـوعي أن يوضـح الأسـباب الكامنة وراء فشل الرؤى التحديثية لدى من حكم العالم الإسلامي مـن السياسيين والفئات الطفيلية من الوزراء والمستشـارين الـذين جعلـوا كتاب الله وسنة نبيهم وراءهم ظهريا.

إذ كيف يمكن لمن استباح قتل الأبرياء أن يعطى الأمن لمن فقده وكيف لمن سرق أقوات الملايين أن يستنقذهم من الفقر وكيف لمن نشر الإلحاد والتحلل من الأخلاق تحت مسمى التقدم الاجتماعي أن يبنى النفوس ويصلح الأفكار وكيف لمن عبّد الناس لفئة من الناس (الحكّام وأمثالهم) أن يُرشِدَ إلى السبل المستقيمة؟

أن أي فهم لفشل الدولة في العالم الإسلامي ينبغي أن ينطلق من فهم وإدراك الأفكار الضالة والهدّامة التي تبنتها الأنظمة السياسية وتم تجسيدها في الأنظمة الاقتصادية والسياسات لاجتماعية أملا أن تنتشل هذه الأفكار الأمة من تخلفها وكبواتها. وغليون ذاته يشهد على ذلك. إنه يقول:

(لقد فرضت الدولة نفسها على مجتمعات هذه الأقطار منذ البداية بوصفها أساس التاريخية وأداة تعميم القيم الحضارية وقوة خارجية تسيرها تيارات وقوى سرية لا يمكن التحكم بها بل حتى معرفة قواعد ومنطق عملها. ومن الطبيعي لمثل هذه الدولة التي تريد أن تكون مصدر قيم التقدم والمعاصرة في مواجهة مجتمع التخلف والبلوى أن تستلهم مبادئ تنظيمها وعملها وحوافزها وقوتها نفسها من خارج لا يمكن للمجتمع كذلك أن يسيطر عليه سواء أكان هذا الخارج أجنبيا أم مجالا أقواميا أو عصبيا قادما من خارج الدائرة الفضاء السياسي)[35]

أن الأمة المسلمة أمة متميزة بعقيدتها وشريعتها لأن خالقها العظيم أرادها أن تكون كذلك لا من أجل التكبر والاستعلاء في الأرض, ولكن من أجل تبليغ رسالة رب العالمين إلى البشرية لاستنقاذها من ضلالاتها ومن أزماتها التي جلبتها لنفسها بابتعادها عن الدين الحق, وهي لا يمكن أن تفعل ذلك إذا كانت تقتبس منهج حياتها من نظم وقيم الأمم الأخرى في مجال السلوك والتفكير والحركة ومواجهة الجاهلية الأرضية التي يريد منا رب العالمين أن نزيلها ونطهر الأرض منها.

إن الجاهلية المعاصرة ترفض أن تأخذ من الإسلام في مجال التشريع والاقتصاد والسياسة على الرغم من تفاقم مشكلاتهم يوما بعد يوم والتي لا حل لهذه المشكلات إلا في الإسلام لله رب العالمين. فهل أخذوا من التشريع الإسلامي في مجال الحد من الجريمة التي غزت المجتمع في الجاهليات الأرضية المختلفة في الشرق والغرب على حد سواء وأذهبت أمنه واستقراره؟ هل أخذوا من الإسلام نظامه وتشريعه في الحد من تفاقم الفقر والفقراء أو هديه في الحفاظ على اللحمة النفسية بين الزوجين والحد من تفكك الأسرة المعاصرة؟ إنهم لم يأخذوا ولن يقتبسوا من هدي الإسلام إن في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع. إن دينهم الأرضي الذي ارتضوه لأنفسهم يمنعهم من ذلك

---

[35] المرجع السابق،293

على الرغم من إدراكهم ووعيهم بالمآسي الهائلة الـتي أوجـدتها القيـم الجاهلية والأفكار الجاهلية والتي أصبحت دينا يُعبّد الناس لهـا مـن دون الله رب العالمين.
فإذا كانوا هم على هذا الوضع وهم على الباطل والضلال فكيف يمكـن لنا أصحاب الهدي الرباني الذي ارتضاه لنا مولانا رب العالمين أن نأخذ من الباطل في القيم والفكر والسياسات الاقتصادية والاجتماعية؟
لقد كان سيد الأولين والآخرين واضحا و حاسما مع أصـحابه. لقـد بيـن لهم أن الأخذ من الأمم الأخرى فيما لم يأذن به الله إنما هو من الإتبـاع لهذه الأمم في الباطل المفضي إلى البعد عن دين اللـه ومـن ثـم إلـى الهلاك.
في الصحيح عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبـل خيـبر ونحـن حـديثوا عهـد بكفـر وللمشـركين سـدرة يعكفون حولها و وينوطون بها أسلحتهم يقال لها "ذات أنواط". فقلنـا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط. فقال النبي صلى الله عليه وسلم " الله أكبر هذا كما قالت بنـوا إسـرائيل اجعـل لنـا إلهـا كمـا لهـم آلهـة ، لتركبن سنن من كان قبلكم.
وبنو اسـرائيل طلبـوا مـن موسـى عليـه وعلـى نبينـا أفضـل الصـلاة و السلام أن يجعل لهم آلهة عندما فقدوا الإيمان بالله رب العالمين على الرغم من المعجزات التي رأوها مـع نـبيهم موسـى فكـان أن عـاقبهم الله سبحانه وتعالى بالتيه في الصحراء وضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم الدين عقابا مـن اللـه لهـم علـى معاصـيهم وكفرهـم وقسـوة قلوبهم.
واليوم تتكـرر الـدعوة للأخـذ مـن الغـرب وأنظمتـه الفكريـة والثقافيـة والسياسية والاقتصادية بكل ما في هذه الـدعوة مـن شـرك بـالله رب العالمين. و السبب الرئيس الذي يُحفّز هذه الدعوة هـو عـدم الاقتنـاع بالإسلام كعقيدة وشريعة ومنهاج حياة من قبل أتبـاع الغـرب فـي ديـار المسلمين.
إن المنظور الذي يقـدمه الأنصـاري و الجـابري وغليـون ويحللـون مـن خلاله الواقع والأحداث ومن ثم يقدمون من خلاله وسائل الخـروج مـن المحن والمصائب، أقول، ليس شيئا جديد وطارئا. لقد سبقهم في هذا المضـمار مفكـرون آخـرون: الحصـري، طـه حسـين، سـلامة موسـى ولـويس عـوض وغيرهـم كـثير. ولكـن تتسـاوى أفكـارهم فـي ميـزان الإسلام وتأخذ صفة واحدة: إنها الجاهلية. بل تم نقـل فكـر السـابقين في الجاهلية (طه حسين ولويس عوض ...) عن المتأخرين (الأنصاري الجـابري وغليـون) مـن ميـدان الثقافـة إلـى السياسـة الاقتصـادية والاجتماعية وانتهت بالأمة إلى فقر في كل شيء: فقر الأخلاق وضعف في القوة وذلة في المكانة الدولية.

وكما أن عقاب الله قـد حـل ببنـي اسـرائيل عنـدما انحرفـوا عـن ديـن نبيهم، وآثروا اتباع الهوى والضلال فقد حل بنـا عقـاب اللـه فـي الـدنيا فانتشر الربا الـذي أذل الأمـة لأعـدائها وانتشـر الزنـا وشـرب الخمـور والتفكك الأسري على نحو ما بينا من قبل.
وإذن إن أردنا النجاة فعلينـا الرجـوع إلـى ديـن اللـه ففيـه النجـاة مـن أمراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصـادية وفيـه عـز الـدنيا والآخـرة. فمـا هـو التصـور الإسـلامي لطريـق النجـاة وتجنـب الهلاك و والعـزة والاستخلاف والحذر من الذلة والهوان ؟هذا ما سنناقشـه فـي الفصـل القادم.